المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

أثر شعر العكوك في شعر المتنبي

بقلم الدكتور
احمد نصيف الجنابي
كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية
بغداد

(١)

المتنبي ـ بغض النظر عن التفاصيل ـ قمة من القمم الشعرية ، في ادبنا . ولكن القمة مدينة للسفوح وللجذور التي في اعماق الارض ... وهذه حقيقة كونية ثابتة

غير أن شعر المتنبي ليس كلّه قمما شعرية ففي ديوانه بعض القصائد لاجدال في ان قيمتها الفنية قليلة . كقصيدته الزائية(١) :

كفرندي فرند سيفي الجراز
لذة العين عدة للبراز

والحقيقة الاخرى هي انّ قسما من صوره الفنية ومعانيه ـ التي وقف امامها الشاعر الكبير «سعدي الشيرازي» (ت٦٩٤هـ) ، مبهوراً(٢) ـ قد اخذها المتنبي من شعراء اخرين ليسوا في شهرته ، ولم ينالوا من العناية مانال .

فقد اخذ مجموعة من المعاني والصور من شعراء الطبقة الثانية والثالثة .

ومجموعة المعاني التي اخذها من الشاعر عليّ بن جبلة(٣) ، المعروف بالعكوك (١٦٠-٢١٣هـ) هي موضوع هذا البحث .

ولكن .. ماأكثر ماتبدو الاشياء الغريبة طريفة . وقد يظهر الرجل عظيما ووراء عظمته آخرون .وقد يكون الانسان عظيما في فنه ، وهو مدين بجزء من عظمته الفنية للاخرين .

وربما تبدو هذه القضية غريبة .....!!

وهذا شأن المتنبي ...

فجزء من عظمته الشعرية ترجع الى شعراء كانوا في الظلال . ولم تسمح لهم عوامل عديدة بالظهور امام الاضواء ، لانهم لم يترددوا على ابواب الخلفاء وقصورهم المفعمة بالاضواء والمظاهر الخلابة !! وما اكثر ماتكون المظاهر الخلابة زائفة!! وتكون الحقائق الاصيلة في الاعماق ، بعيدا عن الاضواء !!

(٢)

وساتخذ جانب الموازنة ـ في الغالب ـ بين صور المتنبي وصور العكوك ، واوضح الفرق بين الصورتين : صورة الاول وصورة الاخر .

« الصورة الاولى »

فالصورة الاولى للعكوك هي صورة مركبة لانها مكونة من مجموعة صور شعرية متعاقبة ، معتمدة على استعارات فنية ثرة، يقول العكوك:(٤)

بأبي من زارني مكتتماً
خائفاً من كلّ شيء جزعا
قمرٌ نمّ عليه نوره
كيف يخفى الليلُ بدراً طلعا
رَصَدَ الغفلة حتى أمكنت
ورعى السّامرَ حتى هجعا
ركِبَ الأهوالَ في زَورته
ثمّ ماسَلّم حتى ودّعا

« اثرها »

وقد تاثر المتنبي بهذه الصور في موضعين من شعره : ففي المرة الاولى قال يمدح ابا عليّ هرون بن عبدالعزيز الكاتب ، فابتدأ بالغزل :

أمِنَ ازديارك في الدُجى الرقباءُ
إذ حيث انتِ من الظلام ضياءُ

والمعنى : « انها لكونها نورا وضياء لاتخرج ليلا لان الرقباء يشعرون بخروجها حين يرون الظلام ضياء »(٥)

وهذا المعنى مأخوذ من قول العكوك :(٦)

بابي من زارني مكتتما
خائفاً من كلّ شيء جزعا
قمر نم عليه نوره
كيف يخفى الليل بدراً طالعا

وفي المرة الاخرى أخذ المتنبي قوله :

وافترقنا حولاً فلما التقينا
كان تسليمه عليّ لِماما

من قول العكوك :(٧)

ركب الاهوال في زورته
ثمّ ما سلّم حتى ودّعا

« الموازنة »

ولكن المعنى عند المتنبي ذو اتجاه واحد . اما عند العكوك فهو ذو اتجاهات وابعاد : معنى ذو اغوار شتى واعماق بعيدة . واصالة فنية اثرت في شعر البحتري والمتنبي وغيرهما .

وليس هذا فحسب ، فصور العكوك ـ هنا ـ تتدفق بالحركة الفنية والزمنية . والموسيقى الداخلية تتناسق مع الخوف والترصد ، واصطياد الفرص ... انها موسيقى تحمل رجفة اقدام المحب الزائر ... بعد مراقبة وارصاد ... وتحمل خفقات قلبه المشوق المتلهف للقاء . رغم ..العيون انها تصور تلك الزيارة الخفية المكتتمة ، وهو حذر في مشيته يخاف الواشي والنمّام . ولكنه رغم تخفيه اظهره نوره ، ولتعميق هذا المعنى اتبعه بهذا الاستفهام الاستنكاري « كيف يخفى الليلُ بدراً طلعا ؟ »وهذا الترصد مع هذا الاسلوب الرقيق ، ينسجم مع الموسيقى الداخلية المنسابة ، مع هذا الترصد : « رصد الخلوة حتى امكنت » و «رعى السامر حتى هجعا» .

وبعد كل هذه المكابرة ومصارعة الاهوالُ ومغالبة الرقباء يتحرك الزمن حركة جديدة وسريعة جدا ،

كابد الأهوالُ فيْ زورته
ثمّ ماسلِم حتى ودّعا

فيتحرك الذهن والخيال مع هذه السرعة المتخيلة ، وفلسفة الجمال تقرر أن الفن الجميل يمتاز بانه يخاطب الخيال . وهذا ماتحقق تحققا كاملا في صور العكوك .

اما صورة المتنبي فهو صورة بطيئة الحركة جدا ، بل هي عديمة الحركة ... الرقباء تركوا اماكنهم ... فلم يعد هناك ترصد ولاخوف ... اما الحبيبة ـ بهذا التقرير البارد الخالي من الروح .. وهذه البادرة ليست الاولى في شعر المتنبي فهو يرى الحبّ «غرّة وطماعة» ... ولا اعتقد أنه استطاع ان يصور خلجان النفس العاشقة فأسلوب العنف يغلب عليه ويفتقر ـ غالبا ـ الى العبارة الرشيقة ، والخفقة الراعشة في اغوار الكلمات ... « ولايعرف الشوق الا من يكابده » واذا كان قد احب اخت سيف الدولة فيما يزعمون، فانه قد احبها من خلال حبه لسيف الدولة .... وادل شيء عندي قول المتنبي في سيف الدولة :

واحرَّ قلباهُ ممنْ قلبُهُ شَبِمُ
ومن بجسمي وحالي عِندهُ سَقَمُ
مالي أكتّمُ حباً قدبرى جسدي
وتدّعي حبّ سيف الدولة الأممُ

وجل ابيات القصيدة بعد ذلك حوار داخلي يعبر عن اقوى ايات الحب الملتهب الموار بالحركة والحياة .كقوله :

ياأعدل الناس الاّ في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكمُ

وعند مانضع ابياته مع بائيته في اخت سيف الدولة (المتوفاة سنة ٣٥٢هـ) :

ياأختَ خير اخٍ يابنتَ خير ابٍ
كناية بهما عن اشرف النسب

نجد الفرق واضحا . فان نقطة الارتكاز فيها ـ وهي المطلع ـ تستند الى شرف النسب ، لا الى «قيم الحب» التي تنأى عن هذا المنطق ... فللحب قيم واسس تعرفها لغة العشاق .. وما ابعد فن المتنبي عن هذا المقام !!

الصورة الثانية

قال العكوك :

وأرى الليالي ماطوت من قوتي
زادته في عقلي وفي افهامي

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى فقال :

ليت الحوادث باعتني التي اخـذت
مِنّي بحلمي الذي اعطت. وتجربتي

وفسر «الواحدي» بيت المتنبي بقوله : (الحوادث اخذت مني شبابي واعطتني الحلم والتجربة ؛فليتها باعت ما اخذت مني بما أعطت)(٨)

والظاهر أن بيت العكوك اقرب الى سرورة الشعر من بيت المتنبي لوضوح اسلوبه وبروز معناه ، وان بيت المتنبي ذو تعقيد في المعنى . وتعقيد موسيقى وثقل في الايقاع . وهذا سر عدم سريانه وسرورة بيت العكوك ، فقد بين «الثعالبي» أن الاخير مما يتمثل به ويستشهد ، وذلك في كتابه «التمثيل والمحاضرة » . وقد اختاره غيره في هذا المقام :مقام الاستشهاد(٩) .

وقد استشهد به عبدالقاهر الجرجاني في «دلائل الاعجاز» على أن المتأخر قد يأتي بصياغة فنية وبتصوير يعطيان المعنى جماله وقيمته ،وذلك حين وازن بين الشعراء في قوة الصياغة(١٠) .

الصورة الثالثة

وقال علّي بن جَبَلة في مدح ابي دُلف :(١١)

تراثُ ابيه عن ابيه وجدّه
وكلُّ آمرئٍ جارٍ على ماتعوّدا

وقد تأثر به المتنبي فقال :

لكلِّ آمرئٍ مِنْ دهره ماتعوّدا
وعاداتُ سيف الدولةالطعنُ فيالعدا

ولاشك فيأن تصوير التنبي ابعد دلالة واقرب الى قوة العبارة الشعرية المتّسقة مع المعنى . وهنا تكمن عبقرية المتنبي الفنية . انه فنان في تصوير القوة والعنف أبداً !!

الصورة الرابعة

قال العكوك :

للعيد يومٌ مِن الأيام منتظرٌ
والناسُ في كلِّ يومٍ منكَ في عيد

وقد تأثر المتنبي فقال في مديح سيف الدولة:

هنيئاً لكَ العيدُ الذيانتَ عيدُه
وعيدٌ لِمن سَمّى وضحى وعيدا

ومعنى بيت المتنبي فيه شيء من الغموض وقد أعرض عن تفسيره «ابن جني» ـ في الفتح الوهبي ـ وفسره «ابن فورّجة ـفي الفتح على ابي الفتح ـ فقال : (وقوله : «انت عيده» ، يريد : انت تحلّ محلّ العيد في القلوب . اذ كان العيد مما يفرح الناس . فكذلك هذا العيد يفرح بوصوله اليك) .اما عجز البيت فمعناه : (انت عيد كل مسلم)(١٢) .

اما بيت العكوك فواضح ، وهو اقوى في الدلالة على شمول العيد الناسَ جميعا . وفيه معنى التجدد الذي يعمق في الذاكرة معناه ..وحين يقابل العجز بالصدر يكون العيد يوماً واحداً منتظرا ثم يزول . أما انت فالناس يفرحون بك كلما تنفس النهار ... ودبّت الحياة في الحياة ...

الصورة الخامسة

قال العكوك في مدح «حميد الطائي» :

وما تعمّدتُ فيكَ وصفاً
الاّ تقدمتُه امامي

اخذه المتنبي فقال في مدح « كافور »:(١٣)

واخلاقُ كافورٍ اذا شئتُ مدحَهُ
وإنْ لم اشأ تملي عليَّ واكتبُ

ويريد انّ اخلاق كافور تعرب عن كرمه فهي تملي عليّ فضائله ، وامدحه شئت او أبيت ، فلا احتاج الى جلب معنى ومنقبة اليه لأنّ اخلاقه تعينني على مدحه(١٤) .

وهو المعنى الذي قصده العكوك من قبلُ . ولكن بيت المتنبي اعمق دلالة وابعد مرمى من بيت العكوك ، وان كان الاخر اخفّ وزناً وارق موسيقى .

الصورة السادسة

قال العكوك في وصف فرس ابي دُلف :

تحسَبُهُ اقعَدَ في آستقباله
حتى اذا استدبرتَهُ قلتَ اكبّ

اخذه المتنبي فقال في وصف فرس «بدر ابن عمار» :

ان ادبرتْ قلت لا تليلَ لها
او قبلت قلت : مالها كَفَلٌ(١٥)

ومعنى بيت المتنبي قريب من معنى بيت العكوك .

فالفرس من حيث تأملها رائيها مشرفة عند

اقبالها بعنقها ، وعند ادبارها بعجزهـــا ، فتهتز مقبلة وتنصب مدبرة .وهذه من الاوصاف الحسنة في الفرس . ومعنى هذا انها حسنة في اقبالهـا وادبارها(١٦) .

وبيت العكوك من قصيدة له يصف فيها فرس ابى دلف ويمدحـه .

وقد لفت وصفه نظر النقاد قديما فاختاروا هذا البيت مع مجموعة من ابيات القصيدة . ومـن هؤلاء : «ابن الجراح» في كتاب الورقة . والاصفهاني في كتاب الزهرة ، وابو الفرج الاصفاني في كتاب الاغاني ، وابو هلال العسكري في كتاب المعاني ، وابن منظور في مختار الاغاني(١٧)

وصورة المتنبي ذاتموسيقى بطيئة لاتصور سرعة الفرس ولا اهتزازها مقبلة ولا انصبابها مدبرة فقد وصف فرسه بجملتين متشابهتينأو متساويتين اوقفا كلّ حركة حية في موسيقى البيت .

ان ادبرت قلت : لا تليل لها

او اقبلت قلت : مالها كفـل

ولكن صورة العكوك ترسم السرعة بموسيقى حية اخاذة بهذه المقاطع المتعاقبة التي يأخذ بعضها بحجز بعض .

تحسبه اقعـــد في اســتقبالـــه
حتـى اذا استدبرته قلـت اكـبّ

الصورة السابعة

اما قول المتنبي :

الجـودُ عـينٌ وفيـك ناظرُهـــا
والبـــأسُ باعٌ وانـــت يمنـــاه

فمأخوذ من قول العكوك :

فلو جزّا اللـه العـلا فتجـزأتْ
لكـانتْ له العينـــانِ والاذنـــانِ

وقد ابان صاحب «الوساطة» ان المتنبي اخذ صورته من العكوك ولكنه جعل زيادة الحسـن لقول المتنبي(١٨) .

ولكني أرى ان صورة العكوك اجمل واحسن لقوة ايحائها لانه بنى القضية على اساس الشرط فجعلها اقرب الى الخيال وتلك طبيعة الفـن ... انه يحرك فينا ملكة الخيال ...

اما المتنبي فقد قرر القضية بشكل عقلي يفتقر الى تلك الحيوية ... والى ذلـك المحـرّك الفني الجميل .

الصورة الثامنة

اما قول العكوك :

واثّـل مالـــم يحـــوه متقـدّمٌ
وإن نـال فيـه آخر فهوَ تابعُ

فقد اثر في قول المتنبي :(١٩)

تـرفّع عن عُونِ المكـارم قـدرةً
فمـا يفعلُ الفعـلاتِ إلاّ عـذاريا

الصورة التاسعة

قال عليّ بن جبلة العكوك :

كأنّهُـــمُ والرمـــاحُ شـــابكةٌ
اسُـدٌ عليهـا اظلّـتِ الاَجَـمُ

فأخذه المتنبي وقال :

بنو العفـر ني محطك الاســـد الـ
اســد ، ولكـن رماحُها الاجـم

والمعنى : (انتم يابني العفرني سُود ، لكن رماحكم الآجام التي بها تمتنعون عن الاعداء ، كما يمتنع الاسد بالاجمة من الاسد ، فهي بدل لهـم من الاجام) (٢٠) .

ويبدو انّ صورة المتنبي قد فقدت جمالها الفني وقوة ايحائها لانه اختار لهـا هذه الالفاظ التي جعلت موسيقاها نافرة ، واعطاها شكلاً معقداً غامض المعنى . ولولا شرّاح ديوانه لما استطعنا ان نصل الى المعنى الا بصعوبة كبيرة .

وصورة العكوك واضحة ، قد تحققت فيها جميع اركان الصورة الواضحة ، وبهذا فهي موحية وجميلة ، اذا ماوضعت بجانب صورة المتنبي .

الصورة العاشرة

والصورة التاسعة التي اقتبسها المتنبي هي قول العكوك في «قصر الحياة» :

شـــباب كـأنْ لـــم يكـــنْ
وشـــيبٌ كـــأنْ لـــم يـــزلْ

وقد تاثر بها المتنبي فقـال :

ذكرتُ به وصلاً كأنْ لم افزْ بـــه
وعيشـــاً كأني كنتُ اقطعهُ وثبـا

وجعل صاحب الوساطة ، المصراع الثاني من قـول المتنبي مأخوذا من قولّ ابـي صخـر الهذلي :(٢١)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى مابيننا سكن الدهر

ولكن هذا الراى غير مُسَلم به « فليس الامر على ماذكر صاحب الوساطة فان بيت الهذلي بعيد عن معنى ابي الطيب لان الهذلي يقول : عجبتُ كيف سعى الدهر بيننا بالافساد فلما انقضى مابيننا سكن عن الاصلاح ولم يسع فيه سعيه بالافساد . واى تقارب لهذا المعنى من معنى ابي الطيب ؟ وظنّ القاضي ـ اي : الجرجاني صاحب الوساطة ـ ان معنى بيت الهذلي : عجيب لسرعة مضيّ الدهر بأيام الوصل فلما انقضى الوصل طال الدهر ، حتى كانه سكن»(٢٢) .

والمتنبي اراد بالمصراعين جميعا قصر زمان الوصل. فاما المصراع الاول فانه يقول :« كانه لم يكن لقصره » . واما المصراع الثاني فيقول: «كأن قصر اوقات كلّ نعمة فيه قصر وقت الوثب ، فكأن كل زيارة من الحبيب وثبة ، وكلّ ساعة من اللقاء وثبة ، وكلّ يوم من الاجتماع وثبة»(٢٣) .

وصورة المتنبي فيها قوة وحيوية آتية من استحضار كل اوقات عيشه الذي مضى بسرعة مشهودة حاضرة (كالوثب) . والصورة متحركة موارة بالحياة متسقة مع الموسيقى الداخلية

وتصوير العكوك عقليّ باهت يفتقر الى الصورة الحية المتحركة بالموسيقى المعبرة .... فاذا فقدت هذا العنصر الفني الاصيل فماذا يبقى لها ؟!

الصورة الحادية عشرة

وقال عليّ بن جبلة العكوك :

بِهِ عُلِّمَ الاعطاءَ كلُّ مبخَّل
واقدم يومَ الروع كلُّ جبانِ

وقد تاثر المتنبي فقال :

ويااجبنَ الفرسان صاحبه تجترىء
ويااشجعَ الشُّجْعانِ فارقه تفرق

والمتنبي يريد : ان من صاحب الممدوح صار جريئا ، أما لانه يتعلم منه الشجاعة ، واما بنصرته. ومن فارقه ـ وان كان شجاعا خاف وصار جبانا(٢٤) .

وبيت العكوك ابعد اثرا واقوى ايحاء من بيت المتنبي لان في الاول تقريرا عاما . وفي الاخر تعبير بالخطاب المباشر ، وفي بيت العكوك رشاقة في الاسلوب وفي بيت المتنبي غلظة معروفة يفشل في تصوير خلجان الحب والعشق . وفي بيت العكوك هذا التقسيم البلاغي الجميل . وفي بيت المتنبي هذا الجناس (ومايشبهه) وذلك حيث يقول : « ويا اشجع الشجعان فارقه تفرق »(٢٥) .

الصورة الثانية عشرة

وقال المتنبي يمدح علي بن ابراهيم التنوخي:

تهلّل قبل تسليمي عليه
والقى ماله قبل الوساد

وهو متأثر بقول العكوك :(٢٦)

اعطيتني ياوليَّ الحقِّ مبتدياً
عطيةً كافات مَدْحي ولم ترني
ماشِمْتَ بَرْقَكَ حتى نلتَ ريِّقَهُ
كأنّما كنتَ بالجدوى تُبادِرُني

وبين التعبيرين بون شاسع . فتعبير العكوك يعتمد على تركيب فني ذي امتزاج تشبيهي بين البيتين . والصورة في البيت الاخر توضح ابعاد معنى البيت الاول . فقد اعطى (الحسن بن سهل) سنة ٢١٠هـ العكوك ، قبل ان يراه مبالغة في اكرامه وقد شبه هذه المبادرة بمن ذاق طعم ريق المطر ـ وهو افضله واوله ـ دون ان يشيم برقه ـ اي: دون ان ينظر اليه اين يقصد واين يمطر . وهو تشبيه جميل .

اما تعبير المتنبي فهو تعبير مباشر ، وليس فيه اي تصوير فني، فلا يمكن ان يوضع مع قمم المتنبي الشعرية .

وقد نالت صورة العكوك اعجاب بعض النقاد القدامى مثل الجرجاني فاثنى عليها قائلا : (وهذا من جيد شعره ، وجيد شعر المحدثين ، وواقع في كل اختيار)(٢٧) .

وهو راى له قيمته النقدية لان الجرجاني على علم بالشعر يغوص الى معانيه الدقيقة . وهو في النقد « في الذروة العليا » . كما وصفه « ابن فورجة» (٢٨) .

الصورة الثالثة عشرة

اما الصورة الثالثة عشرة فهي قول العكوك

سما فوق الرجالِ فليس يخفى
وهل في مطلعِ الشمسِ التباسُ ؟

وقد أخذها المتنبي فقال :(٢٩)

لاتلومنّ اليهوديّ على
أنْ يرى الشمسَ فلا ينكرها
انما اللوم على حاسِبِها
ظلمةً مِنْ بعد مايبصرُها

وصورة العكوك ـ فيما يبدو ـ اقوى واجمل من الناحية الفنية ، فانه شبه وضوح سموّ الممدوح للناس كافة وشهرته ، بطلوع الشمس اذ هي تجمع بين الرفعة والشهرة . وقد اخرج الشاعر هذه الصورة مخرج الاستفهام الاستنكاري وهو ابلغ من الخبر المباشر والكلام التقريري العقلي الذي . يلف كلام المتنبي ، فيجعله يخلو من الصورة الفنية .

الصورة الرابعة عشرة

اما هذه الصورة فهي قول العكوك في ابي دلف العجليّ :

وما سوّدتْ عجلاً مآثرُ قومِهِ
ولكنْ به سادتْ على غيرها عِجلُ

فجرى المتنبي على منهاج العكوك ـ على حد تعبير الجرجاني ـ فقال :

مابقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

ولكن الجرجاني عدّ قول العكوك من المبالغات التي اخرجت الشاعر من حدّ الاعتدال الى حدّ الخطأ ، فقال : « وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ويغضّ من حسبه ويحقر من شأن سلفه » .لان منهج المدح المقبول عنده « ان يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفا به ، فيجعل لكل منهم في الفخر حظاً وفي المدح نصيبا . فاذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين عليهم ، بل كان لكل فريق منهم ،لان شرف الوالد جزء من ميراثه ومنتقل الى ولده كانتقال ماله»(٣٠) والجيد من المعاني في هذا الباب ـ في نظر الجرجاني ـ ماقاله زهير :

ومابكَ من خيرٍ أتوهُ فإنّما
توارثه آباءُ آبائِهم قبلُ

ويبدو انّ الجرجانيّ أعتمد في نقده على قضايا اجتماعية ترجع الى العرف الجاهلي ، بدليل استشاده بشعر زهير، واتخاذه دليلا على خطأ منهج العكوك وكذلك منهج المتنبي .

غير انّ هذا العرف الاجتماعيّ قد تغيّر واصبح الناس يتفاضلون باعمالهم وجهودهم وليس بأنسابهم ، قبل ان يقول الجرجاني قولته باكثر من ثلاثة قرون عندما أعلن الاسلام رسالته الخالدة قال تعالى: (انّ اكرمكم عند الله اتقاكم)(٣١) . وقال : (وانْ ليس للانسان الا ماسعى)(٣٢)...

فاين الجرجانيّ من كلّ هذا ؟!

الصورة الخامسة عشرة

قال عليّ بن جبلة :

وما يشفي صداع المرا
س مثل الصارم العضب

فاخذه المتنبي وقال :(٣٣)

اذا وصفوا له داءً بثغرٍ
سقاه اسنّةَ الأسل الطوال

وبيت المتنبي اقوى تصويرا وابعد تأثيرا في النفس من بيت العكوك خفيف الموسيقى ، لان قوة الايقاع عند ابي الطيب انسب للمقام واجمل في السياق . وهو ابن بجدتها . ومن مثله في تصوير المعارك ، ورسم الحدث الحمراء ..؟!

الصورة السادسة عشرة

قال العكوك :

خلفتني نِضوَ أحزانٍ اعالجها
بالجزعِ اندبُ في انضاء اطلالِ

واخذ المتنبي هذا فقال :

ولاوقفتُ بجسمٍ مُنيَ ثالثة
ذي ارسمٍ دُرُسٍ في الأرسُمِ الدُرُس

وقد لخص شارح ديوان المتنبي ،(٣٤) معنى البيت بقوله :« وقف بجسم دارس ، اي : ناحل قد شاب شعره من الهم ،وضعف بصره من البكاء وضعفت قوته من السهر والهمّ فهذا دروس الجسم . ودروس الدار : اثر الرماد والثرى ، ومضارب البيوت من الاوتاد ، وغير ذلك » .

وأكتفى بهذا ولم يوازن بين الصورتين . وهكذا يفعل النقاد الاخرون في الغالب .

ولاادري لم اختار المتنبي هذه الكلمات السينية التي جعلت الصورة تقف نافرة ، غير موفقة في تصوير الموقف . لانها صورة ذات موسيقى رشيقة ناعمة تصلح لوصف الربيع ، او لتصوير وسوسة الحلي في صدور العذارى .

فصورة العكوك اقوى اثرا واكثر حياة وقد استعار «النضو» وجعل الاحزان تنضي جسمه كما ينضي الانسان دابته من شدة التعب وطول المسير ،واعطى الصورة تأثيراً قويا اخاذاً وذلك حين وافق بين انضاء جسمه بالحزن وانضاء الاطلال لخلوها من الاحباب فكانها حزينة عليهم كئيبة لفراقهم .

(٣)

وبعد ... فارجو ان اكون قد اعطيت صورة واضحة للقضية التي طرحتها في اول المقام وهي ان شعر المتنبي ليس كله قمما حتى عندما يقاس بشعر الشعراء المعدودين في الطبقة الثانية او الثالثة !!

وقد اوضحت ان العكوك قد فاق المتنبي في رسم معظم تلك الصور ... فكانت صوره اقوى من صورة المتنبي تأثيراً واكثرها ايحاء .

واستعنت بكتب النقد العربي القديمة وشروح ديوان المتنبي . واضفت صورا عديدة . أما المقارنات فهي لي خالصة .

وتركت بعض الاقوال التي تحمل النصوص مالاتحمل(٢٥) وقد صدرت في الغالب عن حسد لمنزلة المتنبي . والحسد اقدم الامراض واعصاها على الشفاء حتى يومنا هذا !!

ولم ادع العكوك يتفوق على المتنبي ... فالاخير فنان اصيل في تصوير القوة والحرب ... وخلجات نفوس المقاتلين مقابل عجزه عن تصوير خفقان قلوب المحبين ...

ولكل فنان ناحية يبرز فيها ويفوق اقرانه وتلك قضية نقدية اقرها جل النقاد والمحدثين وهي تنسحب على الفن قديما وحديثا لانها سليمة وقائمة .

ولله الحمد في الاولى والاخرة . وهو حسبي ونعم الوكيل .

الهوامش والاحالات

(١) ينظر كتابنا : في الرؤيا الشعرية المعاصرة /١٠٠ ففيه نقد مختصر لهذه القصيدة .

(٢) حيث قال : «نظرت في ديوان المتنبي : بحر المعاني ، فاحتقرت متاعي» ـ ينظر كتاب : المتنبي وسعدي . للدكتور حسين محفوظ ص ١٦

(٣) هو ابو الحسن علي بن جبله بن عبدالله او ابن عبد الرحمن بن مسلم وكان والده من الابناء : انصار الدعوة العباسية في خراسان (ترجمته المفصلة في : رسائل الجاحظ ٦٨/٢ وابن طيفور : كتاب بغداد/١٢٨ وابن الجراح : كتاب الورقة/١١٢ وابن المعتز : طبقات الشعراء/١٧٩ وتاريخ بغداد ٣٥٩/١١ والبكري : سمط اللالىء ٣٣٠/١ووفيات الاعيان ٣٥/٣) .

(٤) الابيات كاملة في : الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي /٢٢ ، وزهر الاداب ٧٤٤/٢ ووفيات الاعيان ٣٥/٣ وابن كثير :البداية والنهاية ٢٦٧١٠/١٠ والصبح المنبي عن حيثية المتنبي /٢٤١ وبعضها في مراجع اخرى ستاتي الاشارة اليها .

(٥) الواحدي : شرح ديوان المتنبي /١٩١

(٦) المرجع نفسه / ١٩١

(٧) التبيان في شرح الديوان (المنسوب للعكبري) ٢٧٩/٣

(٨) شرح ديوان المتنبي / ٦٣٦

(٩) التمثيل والمحاضرة /٨٧ والنويري : نهاية الارب/٨٩

(١٠) دلائل الاعجاز/٣٨٧

(١١) هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل وينتهي نسبه الى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . وكان بطلا شجاعا جوادا وشاعرا . برز في عصر المامون (ترجمته في الاغاني ٢٤٨/٨ ، ط . الدار وتاريخ بغداد ٤١٦/١٢) .

(١٢) ابن فورجة : الفتح على ابي الفتح / ١٠٦

(١٣) التبيان في شرح الديوان ٢٨١/١

(١٤) المرجع نفسه ١٨١/١

(١٥) التليل: العنق. والكلف : العجز وقيل دف العجز (للسان عنق ، وكفل) .

(١٦) التبيان في شرح الديوان ٢١٤/٣

(١٧) الورقة / ١١٦ والزهرة ٢٤٥/٢ والوساطة بين المتنبي وخصومه/٢٢٥ ، وكتاب المعاني ٥٠/١ والاغاني ١٠٠/١٨ وابن منظور . مختار الاغاني ٣٣١/٥

(١٨) الوساطة / ٢٨٣

(١٩) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي/١٩٥

(٢٠) الوساطة / ٢٨٣ والتبيان ٦٣/٤

(٢١) الوساطة / ١٩٣

(٢٢،٢٣) الفتح على ابي الفتح /٧٨، ٧٩، ٨٠

(٢٤) شرح ديوان المتنبي /٥٠٤

(٢٥) يرى بعض البلاغيين ان كل كلمتين متفقتين في الحروف الاصول هي من باب الجناس . والى هذا الراي نظرت .

(٢٦) شرح ديوان المتنبي / ١٣٩ والتبيان ٣٥٨/١ ـ ٣٥٩

(٢٧) الوساطة / ٢٨٧

(٢٨) الفتح على ابي الفتح /٨٠

(٢٩) التبيان ١٤٦/٢

(٢٠) الوساطة /٢٨٣ (وقد اشار الراغب الاصفهاني الى أن المتنبي أخذ المعنى من علي بن جبله العكوك ، دون ان يشير الى كتاب الوساطة ـ تنظر محاضرات الادباء ١/ ٣٣٤) .

(٢١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢٢) سورة النجم آية ٣٩

(٢٣) الوساطة /٢٨٢

(٢٤) التبيان في شرح الديوان ١٨٧/٢

(٢٥) يرى الحاتمي أن قول المتنبي في مدح الحسين بن اسحاق التنوخي :

لك الخير فيري رام من غيرك الغنى
وغيرى بغير اللاذقية لاحق
هي الغرض الاقصى ورؤيتك المنى
ومنزلك الدنيا ، وانت الخلائق

ماخوذ من قول العكوك :

ذريني اجوب الارض في طلب الغنى
فما «الكرج» الدنيا ولاالناس «قاسم»

(تنظر الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره) .ولا ارى ذلك ... للبعد بين مرمى المتنبي ومغزى بيت العكوك .

● ● ●

قائمة المراجع

(١) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني (ط.الدار . وط الساسي ، عند عدم التعيين ، تراد طبعة الساسي) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢م ،

(٣) كتاب بغداد لابن طيفور : احمد بن ابي طاهر (ت.٢٨٠هـ) .نشر مكتبة الثقافة الاسلامية بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م.

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) .مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ/١٩٣١م

(٥) التبيان في شرح الديوان المنسوب لابي البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) تحقيق الاستاذ مصطفى السقا وزميليه (ط البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٦) .

(٦) التمثيل والمحاضرة . للثعالبي : ابي منصور عبدالملك ابن محمد (ت ٤٢٩هـ) ط عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦١م .

(٧) دلائل الاعجاز تاليف عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) . بتصحيح السيد محمد رشيد رضا . ط دار المنار بمصر ١٣٧٢هـ

(٨) رسائل الجاحظ . بتحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون ط . الخانجي سنة ١٩٦٠.

(٩) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقطشعره . من كلام ابي علي محمد بن الحسن الحاتمي بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم (دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ)

(١٠) زهرة الاداب للحصري . ط . القاهرة ١٩٥٣م

(١١) كتاب الزهرة ـ النصف الثاني . لابي بكر محمد بن داود الاصبهاني (ت ٢٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور نوري القيسي . مطبعة الجمهورية ببغداد ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م

(١٢) شرح ديوان المتنبي للواحدي . ط . برلين ١٨٦١م

(١٣) شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك . بتحقيقنا .ط النجف الاشرف ١٩٧١م

(١٤) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي . ليوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) .ط . دار المعارف بمصر ١٩٦٣

(١٥) طبقات الشعراء . لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) . ط دار المعارف بمصر ١٩٥٦م

(١٦) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي . تاليف ابي الفتح عثمان بن جني . تحقيق الدكتور محسن غياض . مطبعة الجمهورية ببغداد ١٩٧٣م .

(١٧) الفتح علي ابي الفتح . تاليف محمد بن فورجة (كان حيا عام ٤٢٧هـ) . تحقيق عبدالكريم الدجيلي . مطبعة الجمهورية ببغداد ١٩٧٤م

(١٨) في الرؤيا الشعرية المعاصرة من تاليفنا (ط دار الجمهورية ١٩٧٣)

(١٩) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . تاليف ابي القاسم حسين بن محمد الراغب الاصبهاني (ت٥٠٢هـ) ط بيروت ١٩٦١

(٢٠) مختار الاغاني في الاخبار والتهاني . لابن منظور محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) ، ط . مصر ١٩٦٦م

(٢١) نهاية الارب للنويري (ت ٧٣٢هـ) . ط الدار .١٩٣٠م

(٢٢) كتاب الورقة لابي عبدالله محمد بن داود الجراح (ت ٢٩٠هـ) . ط دار المعارف بمصر

(٢٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه لابي الحسن بن علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) . تصحيح احمد عارف الزين . مطبعة محمد علي صبيح بمصر (بدون تاريخ) .